الحبكة الفنية

لا ريب أن الخبرة الطويلة لنجيب الكيلاني في ميدان الكتابة القصصية قد أعطته قدرة على بناء قصصه ورواياته بصورة جيدة ومحكمة ومتماسكة.. لذا تجد المادة القصصية في رواياته تجمعها وحدة منسجمة مترابطة ويستطيع القارئ - على حد قول بعض الباحثين - أن يتتبعها بشوق ونهم دون أن يعاني صعوبة ما في تفهمها ورصد أحداثها[١].

وروايات نجيب الكيلاني من النوع الذي يطلق عليه القصة التمثيلية Dramatic Novel حيث يكون التفاعل على أتمه بين الحوادث والشخصيات، فالحادثة التي تجترحها الشخصية، سرعان ما تصبح عاملاً مؤثراً في القصة، قد يمس الشخصية نفسها مساً رفيقاً ليناً، أو عنيفاً عاتيا...[٢].

لذا فإن روايات نجيب الكيلاني تحقق التفاعل بين بناء الشخصيات وبناء الحوادث في إطار متماسك ومتنام، بحيث تترابط الحوادث بالشخصيات.. ترابطاً طردياً، يجعل نمو كل منهما مرتبطاً بالآخر ارتباطاً وثيقاً.

إن نمو الحوادث يتسق مع التتابع الزمني، قليلة هي الحوادث التي تبدو معقدة، أو تتكشف من خلال سياق

---

(١) محمد يوسف نجم، فن القصة، ٣٤.
(٢) السابق، ٤٩.

متقاطع (رأسياً وافقياً).. إنها أي الحوادث تسير في اتجاه أفقي بصفة عامة، وهو ما يجعلها بصورة ما أقرب إلى الحوادث المعقدة أو الغريبة أو المثيرة.. ولكنه يقدم واقعاً يومياً أو اجتماعياً مألوفاً يعيشه الناس، ويمرون به، ويتفاعلون معه سلباً أو إيجاباً، وتكمن براعة الكاتب في تقديمه بصورة مشوقة تحفز على المتابعة والتأمل والتفكير وتكوين موقف معين تجاه الواقع وحوادثه، أو على حد تعبير بعض النقاد «إن الروائي يحتاج إلى استغراق مشاعرنا الذاتية معه قبل أن يكون في مقدوره تحقيق أفضل نتائجه الدرامية والخيالية»[١].

إن الكاتب ينتخب مادته الروائية من الحوادث التي يحفل بها الواقع، ويقنعنا بإمكان حدوثها، ويضعها في إطار منظم ليفسر بها الحياة من حولنا، ولا ريب أن نجيب الكيلاني قد فعل ذلك في رواياته الأربع، وفقاً لمقولة «جورج مور» عن «فن كتابة القصة» الذي يعدّه تتابعاً إيقاعياً منظماً للحوادث في أسلوب إيقاعي منظم للعبارات[٢].

ويتجلى التتابع الإيقاعي المنظم للحوادث والأسلوب الإيقاعي المنظم للعبارات في بناء الروايات بطريقة فنية

---

(١) روجر هيكلي وصلاح رزق، في قراءة الرواية، ١٣.
(٢) انظر: طه محمود طه، القصة في الأدب الإنجليزي، ١٣٣.

جذابة، إذا وقفنا عند كل رواية على حدة، مع الأخذ في الحسبان أن روايتي «اعترافات عبد المتجلي» و«امرأة عبد المتجلي» يعدان بناء موحدا، جزؤه الأول الرواية الأولى، وجزؤه الثاني الرواية الثانية.

ويلاحظ بصفة عامة أن البناء الروائي يقوم على ما يسمى بالحبكة المركبة التي تبنى على أكثر من حكاية. ومع بساطة الحوادث، فإننا في كل رواية نطالع أكثر من حكاية تمضي بالتوازي مع الحكاية الأساس أو تتفرع عنها غالباً.

وتقوم رواية «اعترافات عبد المتجلي» على تكوين شخصية الشاب «عبد المتجلي القصاص» الموظف الصغير بمجلس القرية ويحمل دبلوماً متوسطاً في التجارة، ولكنه مثقف يقرأ ويتعلم ويفكر، تذهله حادثة سرقة الونش العملاق من أكبر ميادين القاهرة وسط الزحام والناس ورجال الأمن، ولا تستطيع الأجهزة المعنية العثور عليه، فيقرر عبد المتجلي أن يحصل على إجازة من عمله ويذهب إلى القاهرة ليتابع قصة الونش ويبحث عنه بنفسه. وفي القاهرة يكتشف عالم جديد بالنسبة له، ويخوض عباب مآزق ومحن تنتهي به إلى السجن والتعذيب، ومن ثم يعود إلى قريته، وقد يبدو حدث البحث عن الونش غير مقنع بصورة ما، أو خيالياً في مفهوم البعض، وبخاصة بعد أن عمّ الإحباط المجتمع بأسره، وسيطر عدم المبالاة على

الناس وانشغالهم بالبحث عن توفير رغيف الخبز أو أساسيات الحياة، وبعد أن تكلفت الدولة بإدارة كل المرافق، وتركت للناس شؤونهم الشخصية فقط، بل إنها تتدخل في هذه الشؤون أحياناً (تحديد النسل مثلاً).

بيد أن نموذج عبد المتجلي موجود، وقائم داخل المجتمع مع ظروف الإحباط وعدم المبالاة والانشغال بالذات، وإن لم يعبر عن نفسه تعبيراً إيجابياً كما فعل عبد المتجلي، فالكثيرون يحلمون بالتغيير، ويتحرك في أحشائهم الرفض للفساد والقهر والعفن وكل ما هو شأنه.. صحيح أن القلة هي أن تبادر إلى الفعل أو التعبير العملي عن الفكر، ولكن الأغلبية مع ظروفها الصعبة تحلم وترفض وإن كان ذلك يتم في صمت نتيجة للخوف أو أسباب أخرى.. ومن ثم فإن نموذج عبد المتجلي ممكن التحقق والالتقاء به في المجتمع بصورة وأخرى.

إن تكوين عبد المتجلي جعله في السابق واللاحق يرفض أشياء فاسدة وغير طيبة، فقد تصدى مثلاً لعملية تجريف الأرض الزراعية، ومع أنه ذاق علقة ساخنة في قسم الشرطة، إلا إنه نجح في إيقاف العملية ومنع تجريف الأرض في قريته، وانتقل تجار الطين إلى قرية أخرى.

وهكذا كون موقف عبد المتجلي في بحثه عن الونش

العملاق عملاً طبيعياً وحدثاً مقبولاً، والمهم هنا أنه يجد القاهرة مدينة بلا قلب، الناس يلهثون، ولا أحد يهتم بأحد، يرى العناء بعينيه، ويصرّ على مواصلة عملية البحث بلا جدوى، ولكنه يتعرف على جوانب سلبية فاسدة في حياة الناس: العصابات والحشاشين والمادة التي تحكم كل شيء حتى قضاء الحاجة أصبح له ثمن» ومع ذلك يلتقي بعناصر طيبة تساعده إلى حدٍ ما بعد نفاذ ما معه، فخادم المسجد يؤويه على السطح، وأم صابرين التي تعطف عليه فيتزوجها، ويتعرف على شيخ الخلوة الذي يمنحه الحكمة.

ويستطيع عبد المتجلي بعد بحث، أن يتوصل إلى أن الونش قد تم تقطيعه في إحدى الورش الميكانيكية، وبيعه إلى تجار في الصعيد، فيستعد للسفر إلى هنا، وهنا تتصاعد الأحداث وتتلاحق، بعد أن يتابعه أحدُ المخبرين ويتقرب إليه، فينطلق لسان عبد المتجلي بالحديث عن الفساد العام، فيقوده المخبر إلى «لا ظوغلي»، ويسأله عبد المتجلي:

« - أين نحن؟؟

- بين فكيّ الأسد..»[1].

ويبدأ الاستجواب والتعذيب الذي يكشف عن توتر

---

(١) اعترافات عبد المتجلي، ٨٩.

ورغبة قاهرة في القمع، وهو ما يدفع الضابط المستجوب إلى أن يعدّ موضوع الونش «مجرد ستار يختفي وراءه عبد المتجلي الحقيقي.. عبد المتجلي المتطرف ذو الوجه الإرهابي القبيح، الذي ينقل الرسائل والأوامر بين الفصائل الإسلامية المتطرفة في المحافظات والقاهرة وأسيوط..»[١].

وفي محنة التعذيب يكتشف عبد المتجلي عالماً آخر أصم لا يسمع صراخه وتأوهاته، حيث السياط والعصي والأيدي والألسنة تعزف مقطوعة دامية رهيبة تنداح موجاتها الوحشية في روحه وجسده وعقله، وفي لمحة خاطفة عرف معنى القهر الحقيقي، وفهم لأول مرة في حياته معنى الكفر، وبدأ له أن الانتماء الحقيقي، والصدق الإنساني يعني الموت في كثير من الأحيان...»[٢].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل امتد الأثر إلى الناس في القرية حيث صاروا يفرّون من بيته ومنه كما يفرون من الوباء، وتوقفت المجاملات الإنسانية بالنسبة لأمه وأخته، وقالت الأم:

«لقد جرّ على نفسه المصائب.. لكن لا بد أن نوكل له أحد المحامين.. ولا مانع أن نبيع الأرض لنشتري رجلنا»[٣].

---

(١) السابق، ٩٨/٩٩.
(٢) السابق أيضاً، ١٠٠/١٠١.
(٣) نفسه،١٠٢

وهكذا تتوالى أحداث الرواية حتى يتم الإفراج عنه، ويعود مع زوجته إلى القرية ليبدأ مرحلة جديدة.

في خلال هذه الأحداث، تظهر حكايات أخرى تصب غالباً في إحكام البناء الروائي، وتشويق القارئ للمتابعة، وتخدم في الوقت نفسه القصة الأصلية أو الإنسانية فهناك تجريف الأرض الزراعية التي سبقت الإشارة إليها، وقصة خطوبة أخت عبد المتجلي لأحد شبان القرية، وحكاية الحشاشين، وحكاية أم صابرين وزوجها السابق، ومواقف عبد المتجلي مع العمدة وإمام المسجد... الخ، كلها تبرز الحدث الأساسي وتضيئه، وتحقق التشويق الذي تسعى إليه الرواية من أجل بلورة شخصية بطل الرواية «عبد المتجلي القصاص» في كفاحه للبحث عن الونش، أو بمعنى آخر الحديث عن سلبيات المجتمع ومآسي القهر!.

أما الرواية الثانية، أو الجزء الثاني من الرواية، «امرأة عبد المتجلي»، فإن البناء الروائي تتصاعد أحداثه، بل يبدو أكثر دراماتيكية، لطبيعة ما جرى فيه لعبد المتجلي، وإن حاول الكاتب أن يوهمنا أن الموضوع يدور حول امرأته «أم صابرين» بالدرجة الأولى.

تقدم لنا الزواية امرأة عبد المتجلي، نقيضاً لزوجها، ففي الوقت الذي يتشاقق فيه عبد المتجلي المجتمع بسبب

الفساد والقهر، تحاول «أم صابرين» أن تتناغم معه، وتتعامل معه بسلاح المادة، بل تسيطر على من بيدهم زمام الأمور والسلطة، في القرية والمدينة، عن طريق المال، وتعمل على مواجهة ذئاب التجارة والفساد بأساليبهم ومنطقهم.. وإن كانت تقع في النهاية مضرجة بدمائها ضحية للمجتمع الفاسد وأسلوبه!.

لقد كان زواجها من عبد المتجلي، وسيلة التصاعد الدرامي في الرواية، حيث انتشرت الشائعات في القرية حول شخصيتها، وكتب العمدة تقريراً سرياً وضعه في غلاف حكومي أصفر مختوماً بالشمع الأحمر وبعث به إلى جهات الأمن مما ترتب عليه اعتقال عبد المتجلي وخوض تجربة جديدة وقاسية - وعندما عادت إلى القرية، وبدأ الإقامة حيث تبدأ الرواية الثانية، أرادت أن تحسن دخل زوجها والأسرة، ولأنها كانت تبيع في كشك بالميدان الذي سُرق منه الونش بمدينة القاهرة؛ فإن مهارتها في التجارة وذكاءها الفطري دفعاها إلى التفكير في مواصلة تجارة داخل بيتها أولاً، ثم التوسع شيئاً فشيئاً حتى صار متجر كبير يحمل اسم «أم صاربن» وصارت من كبار رجال الأعمال في القرية، بل المدينة، مما عرضها لحنق الخصوم أو المنافسين وكان أول رد فعل لهم هو إحراق بيت عبد المتجلي ويترتب على ذلك الدخول في صراع مع المتنافسين

من ناحية، وصراع مع زوجها من ناحية أخرى، وتعتمد في صراعها المزدوج على المال الذي يخضع الجميع:

«.. لا أستطيع أن أتعامل بعملة غير عملة العصر.. الجنية المصري ينخفض، والدولار يرتفع، لكنك تستطيع أن تشتري النفوس بأي منهما.. وأنا الحمد لله أصبح لدي رصيد من العملة المحلية والأجنبية، لا يجب أن نتصور أن أمامنا عقبة برغم الحريق المدمر الذي أصاب مقرنا.. والبادي أظلم.. والحديد بالحديد..».

«- ذلك طريق الندامة.

- بل السلامة.

- هذه المرة فقدنا بيتاً وأثاثاً وبهائم، أما المرة القادمة، فقد يفقد أحدنا حياته، وتلك خسارة فادحة لن يعوضها شي..»[1].

وكأن عبد المتجلي، كان يتوقع النهاية التي دفعت أم صابرين حياتها ثمناً لها، وكأن المجتمع كله سيدفع حياته الآمنة المطمئنة ثمناً لمنطق العصر أو عملة العصر!.

ومع ملامسة عبد المتجلي من تغير في مستوى حياته، وإحساسه بالثراء والغنى، وعيشه عيش الرخاء والترف،

---

(١) مرأة عبد عبد المتجلي، ٦٩.

فقد كان أحساسه الداخلي بالتناقض مع ما تفعله زوجه سبباً لتوتر دائم في علاقاتهما انتهى بالطاق في لحظة غضب عارمة.

لقد دفع الرخاء عبد المتجلي إلى دخول الانتخابات اعتماداً على حب الناس له قديماً، وتصور أنه سيفوز فوزاً ساحقاً على منافسيه، ولكن النتيجة كانت هزيمة ساحقة، فأصيب بصدمة عنيفة، وتصور أن الحكومة هي السبب، ولم يدرك أن تغيره أو قبوله بالتفير هو الذي أسقطه، وقد واجهه شيخ الجامع ذلك:

«زوجك أقامت امبراطورية للشر. إن السوق السوداء طريق إلى جهنم.. والاحتكار ملعون في لكتاب والسنة.. والعمل على رفع الأسعار إجحاف بحق الفقراء.. وشعبنا مسكين - لقد سقطك الشعب يا عبد المتجلي»[١].

ومع أن المياه عادت إلى مجاريها مرة أخرى بين عبد المتجلي وامرأته إلا أنه عاش التمزق بين ما آمن به من قيم ومثل ترفض الفساد والظلم والاستغلال والرشوة والتعامل مع المفسدين بمعنى تقبلهم والتناغم معهم، وما تقوم به زوجته من خلال امبراطوريتها التي تتوسع باستمرار.. لقد بنت بيتاً

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ٨٢.

حديثاً بعد الحريق الذي إصاب منزلهم المتواضع، وواصلت مسيرتها الظافرة في التجارة، والبحث عن الجناة الذين أحرقوا البيت وقد توصلت إليهم وتعاملت معهم بما تقتضيه الموقف، ولكن عبد المتجلي كان يقارن دائماً بين حياتين:

«حياته الأولى الهادئة الفقيرة المتواضعة كانت أفضل كثيراً مما يعانية اليوم، بل إن وقوعه بين براثن رجال الأمن السياسي، وهو يبحث عن الونش، كانت أخف وطأة مما هو عليه الآن.. القناعة والبساطة حققت له الأمن والسلام، وعندما انتعش اقتصادياً واجتماعياً بدأت تتوافد على الأحداث القاتلة والهموم والمخاوف»[١].. وكثيراً ما يعلن عن إحباطة وأساه، وإحساسه بالإخفاق «لا الونش عادة، ولا أيام الصفاء دامت ولا الدنيا تغيرت إلى الأفضل»[٢]... بل إنه أصيب فجأة بضغط الدم، نتيجة التوتر والاضطراب اللذين يعيشها.

ومن الطريف أنه في هذه المرحلة يعلن عن رغبته في تكوين حزب يسميه «حزب الصابرين» لأن الصبر ألصق صفة بشعبنا منذ آلاف السنين، أو ينشغل بتكوين فرقة مسرحية يحاول من خلالها إصلاح المجتمع ولكنه لا يحقق نجاحاً يذكر، في الوقت الذي تستمر فيه المسيرة التجارية الناجحة لزوجته.

---

(١) السابق، ٦٧.

(٢) نفسه، ٣٤.

تكشف الأحداث عن حجم المافيا التي تتحكم في التجارة والسلطة، وتفرض شروطها على الجميع، ومن يخالف يدفع الثمن غالياً، وهو حياته في الغالب، ثم إنها - أي المافيا - تمارس الانحلال والفساد في أبشع صورهما.

ولأن امرأة عبد المتجلي، خرجت على المافيا إلى حد ما، فقد كان القتل من نصيبها، وقد اتهم عبد المتجلي النظام - يقصد الطوارئ - بقتلها، ورأى أن موتها يميت الحب أيضاً، وأن دمها سوف يشعل الثورة التي لن تبقي ولن تذر، ويدّ نفسه منذ موتها رجلاً متطرفاً، ولكن العمدة يعده ملتاثاً ويطلب إحالته إلى أخصائي أمراض عقلية ماية له ولأسرته.. ولا يزال التحقيق مستمراً! لأن المعركة بين الخير والشر لم تحسم بعد!.

هكذا تنتهي رواية «امرأة عبد المتجلي» أو الجزء الثاني من «اعترافات عبد المتجلي»، ويبدو تتابع الأحداث من خلال شخصية أم صابرين وزوجها عبد المتجلي، متدفقاً ومثيراً، ولعل هذا كان من وراء ترقيم فصول الروايتين معاً، دون أن يضع لهما الكاتب عنواناً.

لقد أتاح السرد عن طريق ضمير الغائب فرصة كبيرة للمؤلف كي يحشد تفاصيل الأحداث في تتابع منظم يثير أشواقنا لمتابعته، والتعرف على نتائج الأحداث ومصائر

الشخوص دون أن نشعر بالملل أو السأم، وهو الشيء ذاته الذي لمسناه في روايته «قضية أبو الفتوح الشرقاوي» حيث حشد كثيراً من التفاصيل وراء الحدث الأكبر في الرواية، وهو سقوط سيارة في الماء.

إنه حدث عادي، ولكن حدوثه في الريف في ذلك الزمان البعيد، جعله غير عادي، يستحوذ على اهتمام النا، ويثير فضولهم، وبخاصة أن الحادث ارتبط بفضيحة خلقية دارت حول امرأة من الطبقة العليا في المجتمع، قيل إنها هربت من زوجها، فسقطت بها السيارة مع عشيقها في مياه الترعة أو البحر العباس كما يسميه الأهالي.

وقد أعطى للحادث بعداً أكبر، ادعاء أحد الفلاحين (أبو الفتوح الشرقاوي) إنه عليم بتفاصيله، ورافق ذلك الادعاد شائعات تدور حول جثث الغرقى التي طفت على سطح الماء بجوار الشاطئ، وتتحدث عن الضحايا ومن بينهم النساء الجميلات والأطفال زرق العيون والمشغولات الذهبية.

يتم القبض عل «أبو الفتوح الشرقاوي» بعد أن وصلت أنباء ادعائه إلى الشرطة، وهناك يخضع للتحقيق، وتحت ضغط التعذيب يضطر إلى المزيد من الكذب كي يرضي سلطات التحقيق، مما أوقع الشرطة والنيابة في متاهة لا بداية لها ولا نهاية، وكشف عن قصور الأداء الأمني، وهو

ما تمثل في إصرار الشرطة على تقديم «متهم» - أي متهم - وليكن أبو الفتوح الشرقاوي، ثم إغلاق ملف القضية بأية وسيلة، ولو كانت مخالفة للحقيقة، فضلاً عن القبض على جميع المشتبه بهم ممن ذكرهم أبو الفتوح في أقواله، وفي مقدمتهم أنصار الحركة الإسلامية!.

ويتضح القصور الأمني العريق في المفارقة التي تجعل الشرطة تقدم متهماً للمحاكمة دون أن تعثر على الجثة موضوع الاتهام. لقد أفهم الضابط المحقق «أبو الفتوح» أنه لا يمكن معرفة إن كانت الجثة لقتيلة أو غريقة إلا بعد التشريح بمعرفة الطبيب الشرعي.. «عندئذ قال أبو الفتوح:

- ولماذا لم يتم التشريح؟؟.

قال الضابط وهو يرميه بنظرات متشككة متوعدة:

- لأننا لم نعثر على الجثة بعد..

- كيف؟ أنتم الحكومة..

- أنت الوحيد الذي اعترف بأنه رآها.

- ولماذا تهتمون بجثة لم تروها؟.

- ليس هذا من شأنك..»[1].

---

(١) قضية «أبو الفتوح الشرقاوي».

وهذا القصور يتحول إلى مأزق حقيقي للشرطة فيما بعد، حيث يوضح طبيعة التفكير الأمني الذي يفكر في تقديم «متهم» وحسب، ولا يعنيه «الظلم أو العدل»، الذي يعنيه إنجاز العمل وإغلاق الملف:

«قال أحد رجال المباحث المحنكين:

ماذا يكون موقفنا، إذا ظهرت عنايات هانم بعد ذلك؟.

أجاب أحد زملائه!.

احتمال ضعيف.

لكنه يظل قائماً، ويحمل تهديداً دائاً لنا.

عاد الزميل يقول في سخرية:

إذا ظهرت نقتلها.

- لا تهرب من الحقيقة.

- أقول نقتلها.

- لن نفعل.

- ولم لا؟ أنا وبعدي الطوفان، ثم إن زوجها الشريجي باشا قد لا يسره ذلك الظهور المحتمل، لأنه يحمل من ثناياه فضية أكبر...»[1].

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٦١.

وإذا كان القصور الأمني، ومأزق الشرة يسهم في التصعيد الدرامي للبناء الروائي نحو الذروة، فإن الشائعات، وبخاصة التي تنشرها الصحف تقوم بدور كبير في هذا السياق، فقد استغلت الصحف الحادث. ونشرته في صفحة الحوادث دون أن يذكروا اسم «عنايات هانم» بالاسم، وأكثرت من الحديث عن قصة غرام وليال حرام وكؤوس وفسوق وفجور وأموال ومغامرات وألاعيب سياسية».

كما تخصصت إحدى شخصيات الرواية «يونس عبده» في إطلاق الشائعات التي أحدثت صدى عند الناس والسلطة معاً، فقد أشاع أن «عنيات هانم» هربت مع ضابط شا من تلاميذ زوجها، وأنها تنكرت عند هروبها في زي فلاحة، وكان قد أشاع قبل ذلك أن «أبو الفتوح الشرقاوي» قد تعرف على الجثة وأنه شارك في الجريمة.. مثلما همس قبل ذلك أيضاً بأن شعبان عبد اللطيف قد كرر القول إنه مادامت الحكومة لا تريد إقامة شريعة الله، فعلى الشعب المسلم أن يتولى ذلك، ومن المرجح لدى المحققين أن شعبان هو الذي أفتى بقتل «عنايات هانم البحيري»، وأن «أبو الفتوح الشرقاوي» هو الجلاد الذي أقام «الحدّ» مقابل مئة جنية. وهناك شاهد اعترف بأن أبو الفتوح فعل ذلك ليدخل الجنة، ويأخذ المائة جنية مكافأة حلالاً! ويفسر ذلك، بأن شعبان على علاقة بالإخوان

المسلمين، ويعرف قصة انحراف عنايات هانم منذ زمان.. وكانت نتيجة شائعات يونس القبض على شعبان وآخرين!.

وهكذا تلعب الشائعات التي تجد صدى لدى الناس والمسؤولين دورها في تعميق الصراع الروائي والتقدم به إلى مستوى الإثارة الفنية...

ولكن المفاجأة التي أذهلت الجميع هي ظهور عنايات هانم في البنك لتصرف من رصيدها، وحاولت السلطات القبض عليها، ولكنها فرت مع الشخص الذي وصف بأنه عشيقها.. وهنا تتعقد الخيوط الروائية.. حيث هناك متهم يعترف بالقتل، وجثة ومقبوض عليهم غير المتهم الرئيس، والشرطة في مأزق.. وهنا تتداخل مصالح وسياسات ورغبات، تتناولها الصحافة وخاصة الحزبية بالمتابعة والتعليق لتشتعل قضية أبو الفتوح، وتأخذ أبعاداً أوسع وأشمل. وترتفع الأصوات لمطالبة بالإفراج عن «أبو الفتوح» ويتقدم الأستاذ حسن سليم، المحامي الشهير، من جماعة الإخوان بمذكرة للنائب العام من أجل الإفراج عنه.

كانت زوجة أبو الفتوح منذ قبض على زوجها، تسعى من أجل الإفراج عنه، فتتعرض لعملية احتيال وخداع من جانب «ونس عبده» عامل التليفون، الذي جعلها تبيع قطعة الأرض التي تملكها وأبو الفتوح، لتوكيل محام يدافع عن

زوجها، فإذا بها تكتشف بعد حين، أن الأرض آلت إلى يونس، وأنه لم يوكل محامياً ولا غيره، ولم يدفع مليماً واحداً لقيطنة أو للمحامي المزعوم.

وبعد أن تدوخ بحثاً عن حلّ، تشير عليها إحدى الجارات أن تتوجه ليلاً إلى «الخروبي» الذي اشتهر بكتابة التعاويذ وشفاء المرضى، وفك أسر المأسورين، وزواج العوانس و «فك المربوطين» وللكنها لم تتح إلى هذا الحل، إيماناً منها بأن الحكومة تبدو محصنة ضد السحر والجان، ولعلها مكونة أصلاً من أناس ينتسبون إلى دنيا العفاريت والشياطين»[1].

بيد أن شعبان عبد اللطيف» وإخوانه يقومون من جانبهم بتبني قضية أبو الفتوح الشرقاوي» من حيث توكيل المحامي والأخذ بيد الزوجة وأبنائها ومساعدتهم على مواجهة الظروف الصعبة...

في غمرة قضية أبو الفتوح، تقدم الرواية قصة جانبية تبدو غير وثيقة بالبناء الروائي وتتعلق بسرقة جاموسة الشيخ المداح، حيث يأخذ الرجل موقفاً سلبياً «لعل من سرقوها في حاجة شديدة إليها»، كما يرفض تقديم بلاغ عن سرقتها..

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٤٢.

ولكن الجاموسة تعود وحدها ذات صباح، وعدّ أهل القرية ذلك كرامة من كرامات الشيخ المداح، وانطلقت الزغاريد من كل مكان، وتمتم الشيخ عندما علم بعودة الجاموسة: «المال الحلال لا يضيع... اتركوها فإنها مأمورة...»[١].

وتتلاحق الحوادث حين تستغل الصحف الحزبية الموضوع، تعلن إحداها أنها ستنتشر مذكرات «أبو الفتوح الشرقاوي»، التي ستطال أطرافاً مختلفة، وستكشف عن أسرار عديدة مثيرة، فيتعرض أبو الفتوح للتهديد والإغراء من أجل الصمت، وحينئذ يتم تهريبة مع زوجته إلى مدينة القاهرة، حتى يأتي موعد المحاكمة.

وتفاجئنا الرواية في النهاية بتغير «أبو الفتوح»، وتعهده بألا يكذب، وانضمامه للإخوان النسلين (زمن الحرب العالمية الثانية)، وفتح شعبة لهم في القرية كان أبو الفتوح أحد أعضائها، وقد غمره الفرح عندما عرف أنهم سيعلمونه القراءة والكتابة، وحفظونه القرآن مع غيره من الأميين.. ولم يعلم أن ذلك سيكون باباً لمتاعب من نوع جديد لا تخطر له على بال[٢].

لقد حملت الرواية - دون بقية الروايات الأربع -

---

(١) السابق، ٦٨.
(٢) نفسه، ١١٦.

عناوين لفصولها (العاشقة - الجريمة - الاتهام - فضيحة على الملأ - الدليل الجديد... الخ وكأن الكاتب كان يوحي من خلال هذه العناوين بعملية تصعيد الحوادث وتناميها في صورة مباشرة، بيد أن طبيعة الموضوع الروائي، وارتكازه على الحدث الرئيسي وما يتعلق به (غرق السيارة وفضيحة عنايات هانم، وارتباط الموضوع بأبعاد سياسية وحزبية وصحفية)، قد حافظت على حرارة السرد والتتابع، وجعلت ممن تداخل الأطراف المختلفة، كل في موضعه، وسيلة من وسائل التشويق، وازدياد الشغف لمعرفة مصائر الشخوص ونهايات الأحداث.

في رواية ملكة العنب تبدأ الأحداث بالكلام المثير الذي صرح به الشيخ محمد حسب الله إمام المسجد في خطبة يوم الجمعة حول زكاة العنب، فالرجل عدّ الزكاة حق الله ويجب إخراجها للفقراء والمحتاجين، وهنا ثار اللغط بين مؤيد ومعارض، واستند المعارضون إلى أن العنب لم يرد في الأصناف التي ذكرتها كتب الفقه، وقال المؤيدون إنها واجبة بالقياس إلى زكاة المال. وهدد فريق من الفقراء بأنهم سيأخذون إنه منعه المزارعون.. وثارت الفتة «براعم» - ملكة العنب - وهددت الشيخ محمد الذي أثار الناس على أصحاب المزارع، ولكن الشيخ حاول إقناعها بأن ما يقوله هو واجبه الديني والعلمي..

ولم تتوقف المسألة عند هذا الحد، فقد مُنع الشيخ محمد من الخطابة، وتدخل المجلس المحلي في الموضوع، وأعلن أن الزكاة مسألة شخصية (!) وأن المهم هو أمن البلاد وتلاحم الجماهير (!).. ثم تدخلت الشرطة.. وجاء واعظ المركز ليعتلي المنبر وخطب عن الصبر ومناقبه، والآيات الكريمة التي نزلت فيه، والجزاء الذي ينتظر أصحابه في الجنة، والرضا بقضاء الله وقدره..

بعد انتهاء الصلاة يطلب الشيخ محمد من الناس الانتظار بضع دقائق، ويشير إلى تأميم الحكومة للمساجد، والحياة التي امتلأت بالمحاذير وحكمتها الطوارئ «إننا لسنا ضد النظام، ولكننا مع الحق، ونحن لا ننتهك الأمن، ولكن نمارس حقنا في الحرية.. ول نق،ل إلا ما جاء به ديننا...»[1].

وتبدو المسألة تسير سيراً عادياً، والحوادث تمضي بغير حدة، ولكن تحدث مفاجأة عندما يصيح رجل في أثناء حديث الشيخ محمد بعد الصلاة، ويقول: «قتيل يا أهل الربايعة.. قتيل في عنب براعم» فيحدث هرج ومرج، ويهرول الناس إلى خارج المسجد.

---

(١) ملكة العنب، ٢٢/٢٣.

وبينما ينشغل الناس بالقتيل مصطفى السلاموني وتاريخه الإجرامي بقتل زوجتيه السابقتين، والحديث عمن يكون قد قتله، إذ بمكبر الصوت يعلن بعد تلاوة الآية الكريمة «كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» عن مقتل شاب في الثلاثينيات يعمل أجيراً في العراق أيام حربها مع إيران، وأشيع في القرية أن الجثة بها أثار عنف، واعتداء جسيم، وجمجمة مهشمة، وطلقة رصاص في الصدر. الميت ابن خاله الشيخ محمد حسب الله إمام المسجد. وصدرت الأوامر بعدم إذاعة التقرير الذي كتبه الطبيب الشرعي. وتساءل الناس: «لماذا يقتل العراقيون أبناءنا الذين خدموهم وضحوا أكبر التضحيات من أجلهم أثناء الحرب وقبلها»[١].

وتساءل الناس عن سرّ سكوت الحكومة على جرائم العراق ضد المصريين، واشتعلت القلوب بالمرارة والأسى والغضب لدرجة أن العمدة، ضرب كفاً بكف وتساءل:

«هل التستر على الجرائم سياسة؟ لقد أصبح الفساد ينخر في كل شيء داخلياً وخارجياً، من سيدفع دية هذا القتيل أو يعطيه حقه؟»[٢].

---

(١) السابق، ٣٨.
(٢) نفسه. ٣٩.

وتتصاعد الحوادث نحو الذروة حين تتحول جنازة القتيل العائد من العراق إلى ماهرة ضد «صدام حسين» والحكومة وإسرائيل وأمريكا. ويحضر الأمن المركزي بأسلحته وهراواته وقنابله المسيلة للدموع، فيفرق المظاهرة /الجنازة، ويفر الجميع عدا الشيخ محمد الذي يبقى بجوار جثة ابن خالته، فيتم القبض عليه مع أربعين آخرين، من أهل الربايعة، ويقول له أحد الضباط في خشونة: «- أنت متلح.. وتقود المظاهرة.. لا بد وأنك من الجماعات الإسلامية..

ثم أشار إلى المعسكر:

- ضعوا (الكلابشات) في يده، وساقوه إلى السيارة!.

قال في استسلام:

- ليس هذا بجديد عليكم.. افعلوا ما شئتم يا أبطال الطوارئ»[1].

تثير تصرفات أجهزة الأمن كثيراً من السخط والاستياء والغضب، تضاف إلى مأساة قتل الأبناء في العراق وشحنهم جثثاً مشوهة إلى الوطن، وقد أثارت هذه التصرفات رمز السلطة في القرية، وهو العمدة الذي قال لقائد الحملة التأديبية:

---

(٣) ملكة العنب، ٤٠.

«- انكم يا باشا تسيئون إلى أنفسكم وإلينا..

قال الضابط في عنجهية:

- أنت يا عمدة لا تعرف الأبعاد الحقيقية لما جرى.

- بل أعرف.

- ماذا؟.

- أهل القرية شعروا بالحزن والغضب من أجل ولدهم الضحية، وهذا أمر طبيعي جداً.

- الحزن في القلب يا عمدة، وليس بالمظاهرات.

- لم تحدث مظاهرة بالمعنى الصحيح.

- فماذا تسمي ما جرى؟؟.

- جنازة.. جنازة حارة لا أكثر.. الناس في القرية عندما يحزنون - يلطمون الخدود، ويشقون الجيوب ويلطخون وجوههم بالطين.. لكن ما حدث اليوم كان جنازة متحضرة.

- لقد هتفوا ضد الحكومة يا عمدة.

- ليكن..

- كيف تقول هذا الكلام؟ إنها مؤامرة، ونعرف من دبرها، وسنقدمهم لمحكمة أمن الدولة..

وستذهل عندما تقرأ اعترافاتهم»[١].

وقد وفى الضابط بما قال، وكانت تحقيقات، وكان تعذيب وحشي بشع تعرض له جميع المعتقلين وعلى رأسهم الشيخ محمد حسب الله إمام المسجد، الذي عُدّ رئيساً للتنظيم المتطرف، والشيخ أبو المجد شاهين، الرجل الصالح الذي أخذوه من بيته.

إن الرواية تكسر قتامة هذا الجو، عن طريق قديم نموذج يقدم الحكمة الساخرة، إنه نموذج الحشاش المدمن «الراعي كشكل» الذي يكشف التحقيق معه عن مفارقات عجيبة في موقف عامة الشعب من الحكومة، حيث تعدّ الحكومة دائماً على حق[٢].

ويضاف إلى هذا موقف السلطة من نواب الأمة، فقد تعرض نائب الدائرة الذي تضامن مع أهل الربايعة إلى إهانات بالغة من الضباط والعسكر، وعندما شرح ما جرى له في مجلس الشعب، قابله نواب الحكومة بالياح والاستنكار، وتحت ضغط الأغلبية، وتعليقات وزير الداخلية اللاذعة، أمر رئيس الجلسة بالانتقال إلى مناقشة قضية القروض الخارجية المتفاقمة!.

---

(١) السابق، ٤٣.

(٢) راجع الرواية ص ٧٤ - ٨٠.

تقوم «براعم» الفتاة الطيبة ببذل الجهد والمال من أجل الإفراج عن المعتقلين، وتستعين بالمحامية الواصلة «سعاد الدباح»، ويتم الإفراج بالفعل، ولكن بعد أن اجتاحت القوات العراقية دولة الكويت، وتغير الموقف الرسمي للحكومة من صدام حسين!.

وهنا تبدأ الحوادث في الهبوط من الذروة، إلى موقف يصمم عليه الناس، وهو تطبيق الشريعة فيما بينهم، دون أن يعبؤوا بملاحقة أجهزة الأمن لهم، واتهامهم بتكوين «بيت مال الأمة» بناء على تحريضات رئيس المجلس المحلي المنحرف.

ويتحقق زواج الشيخ محمد حسب الله من براعم ملمة العنب بعد عقبات يضعها أقاربا في شنراق، وتبدأ مرحلة جديدة في حياة الربايعة وأهلها.

وهكذا يبدو البناء الروائي للحوادث متماسكاً في روايات نجيب الكيلاني، بل كل حادثة تؤدي إلى الأخرى بانتظام منطقي، مما حقق شرائط الحيوية للروايات وشخوصها وحوادثها. وفي الوقت ذاته جعل القارئ يتابع متلهفاً مصائر الشخوص ونهايات الحوادث، بعد استغراق مشاعره الذاتية..

سبقت الإشارة إلى أن الكاتب اعتمد على السرد بضمير الغائب، وهي طريقة لها ناحية إيجابية، تتمثل في

قدرته على السيطرة على الحوادث وانتخاب ما يتلاءم منها مع موضوعه، وحشد التفاصيل في إطار منظم ومتناغم، ولها ناحية سلبية، حيث تعرض النص الروائي لما يمكن أن يسمى بالملل أو الرتابة أو برودة السد، مما يجعل القارئ ينصرف عن النص، ويسقطه من حسابه في المتابعة واستكشاف محتواه، والتعرف على غايته..

وقد أفاد نجيب الكيلاني من قدرته الفنية العالية؛ نتيجة خبرته الطويلة في الكتابة القصصية، لتلافي الناحية السلبية، إذ أن طبيعة الحوادث التي اختارها وعملية ترتيبها، مع تلوينها بالمفارقات والطرائف الاجتماعية، قد حققت له تماسك البناء الروائي، انسياباً متدفقاً، أسهم مع العناصر الأخرى في تقديم بناء قصصي متكامل وجميل، يجمع إلى تفوق الحرفة سلامة التصور.